﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

التأكيد على طهارة الزكية الطاهرة

هذه الآيةُ مِن جملة ما أنطقَ اللّهُ تعالى به عيسى عليه السلام، وهو يَرُدُّ عن أُمِّه، ويدفع عنها التُّهمَة، ولَمَّا كانتِ الزّكاة مِنَ الصِّلاتِ بينَ الناسِ، ومِن وجوه برِّ العبدِ المسلمِ بغيرِه؛ انتقل التّنزيلُ الحكيمُ منها إلى صلةٍ مِن أخَصِّ الصّلاتِ، وإلى وجه برٍّ مِن أعظمِ وجوه البِرِّ؛ وهو ما يكون بينَ العبد وأُمّه التي حملته وهنًا على وهْن، وأرضعَتْه، وسهرت عليه؛ تُصْلِحُه وتُسْعِدُه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَبَرًّا﴾: أَصْلُ الكلمةِ الصِّدْقُ، يُقال: بَرَّ اللّه قَسَمَهُ وأَبَرَّهُ، أيْ: صَدَّقَهُ، والبَرُّ: الصّادِقُ، وخِلافُهُ: الفاجِرُ الكاذِبُ، والبَرُّ أيضًا: الخَيْرُ، ومِنْهُ سُمّيَت الأَرْضُ بَرَّةً؛ لكَثْرَةِ مَنافِعِها[1]، والبِرُّ: الطّاعَةُ، يُقال: فُلانٌ يَبَرُّ خالِقَهُ، أيْ: يُطيعُهُ، ويأْتي بمعنى الإحْسانِ، فيُقال: بَرَّ، يَبَرُّ، فهو بارٌّ، أيْ: مُحْسِنٌ، وضِدُّه: العُقوقُ والإساءَةُ[2]، والمراد بالبَرِّ في الآية: اسْمٌ بمَعْنَى البارِّ، وهو المَوْصوفُ بالمَبَرَّةِ والبِرِّ، وهو حُسْنُ العَمَلِ، ضِدّ الفُجور، وقَدْ خَصَّ اللّه تَعالَى عيسى عليه السلام بذَلِكَ بَيْنَ قَوْمِهِ؛ لأَنَّ برَّ الوالِدَيْنِ كانَ ضَعيفًا في بَني إسْرائيلَ يَوْمَئِذٍ[3].

2) ﴿جَبَّارًا﴾: أصلُ (جبر) يدلُّ على جِنْسٍ مِنَ العَظَمَةِ والعُلُوِّ والاستِقامَةِ، فالجَبّارُ: الَّذي طالَ وفاتَ اليَدَ، يُقالُ فرَسٌ جَبّارٌ، ونَخْلَةٌ جَبّارَةٌ[4]، ورجلٌ جبّار إذا كانَ طَويلًا عَظيمًا قويًّا، تَشْبيهًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (برّ).
(2) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (برّ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 207، 16/ 100.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبر).

بالجبّار مِنَ النَّخيل، وذو كِبْرٍ لا يَقْبَلُ مَوْعِظَة[1]، والجَبّارُ أيضًا: العاتي على رَبِّه، القتّالُ لرَعيَّته[2]، والجَبّارُ كذلك: اللّهُ ﷻ، القاهرُ خلْقَه على ما أَرادَ[3]، والمُرادُ به في الآية: المُتَكَبِّرُ الغَليظُ على النّاسِ في مُعامَلَتِهم[4].

3) ﴿شَقِيًّا﴾: (شقو) أَصْلٌ يَدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ والسَّعادَةِ، والشِّقْوَةُ: خِلافُ السَّعادَة[5]، يُقالُ: أَشْقاهُ اللّه، فهوَ شَقيٌّ بَيِّنُ الشَّقْوَةِ والشِّقْوَةِ والشَّقاوَة[6]، فالشَّقاء: الشِّدَّةُ والعُسْر[7]، وقد يوضع الشَّقاءُ موضعَ التَّعب، نحو: شقيت في كذا، وكلّ شَقاوَةٍ تعبٌ، وليس كلّ تعبٍ شقاوةً، فالتَّعب أعمُّ مِنَ الشَّقاوة[8]، والشَّقيُّ: فعيلٌ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِنْ شَقيَ، إذا تَلَبَّسَ بالشَّقاءِ والشَّقاوَةِ، أَيْ: سوءِ الحالَةِ وشَرِّها وما يُنافِرُ طَبْعَ المُتَّصِفِ بها، والمُرادُ بالشَّقيِّ في الآيةِ: الخاسِرُ الَّذي تَكونُ أَحْوالُهُ كَدِرَةً لَهُ ومُؤْلِمَةً[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول عيسى ﷺ: وجعلني اللّهُ بارًّا بوالِدتي مريمَ، مُطيعًا لها، مُحسِنًا إليها غايةَ الإحسانِ، ولم يجعَلْني مُستَكبرًا عن عبادتِه وبِرِّ أُمّي، ولا غليظًا في مُعاملةِ النّاسِ مُترَفِّعًا عليهم، بل جعلني خاضِعًا خاشِعًا مُتذَلِّلًا له، متواضِعًا لعبادِه، سَعيدًا في الدُّنيا والآخرةِ، فالكِبرُ والتجبُّرُ يَمنَعُ مِنَ البِرِّ للوالدَيْنِ فضلًا عن غيرِهم، وكلَّما زاد الكِبْرُ، نقَصَ معه البِرُّ، فالمُتكبِّرُ يترفَّعُ عمّا يَظُنُّ أنَّه يَضَعُهُ؛ كخِدْمةِ

الكِبرُ والتّجبُّرُ يَمنَعُ مِنَ البِرِّ للوالدَيْنِ فضلًا عن غيرِهم

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(2) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جبر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 100.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (شقو).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية: (شقو، شقى).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شقا).
(8) الرّاغب، المفردات: (شقا).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 164، 16/ 100.

غيرِه والابتذالِ له كوالدِه، وإنْ أراد الإحسانَ، وضَعَ بينَهُ وبينَ والدَيْه خادمًا، وهو قادرٌ، فلا يُباشِرُ مِنَ البِرِّ بنفسه شيئًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف في ﴿وَبَرًّا﴾، وتنكير المعطوف:

العَطْف على أقرب مذكور

جاء قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ معطوفًا على قوله: ﴿مُبَارَكًا﴾، أي: وجعلني مُبارَكًا وبَرًّا، أو مَنصوبًا بإضمارِ فعلٍ، أي: وجعلني برًّا، واختير هذا على الأوَّلِ؛ لأنَّ فيه فصلًا كثيرًا بجُملةِ ﴿وَأَوْصَانِي﴾[2]، وهنا إشارةٌ إلى تنزيه مريم عليها السلام عنِ الزِّنى؛ إذ لو كانت - حاشاها الله - كذلك لَما كان الرَّسولُ المعصوم مأمورًا بتعظيمها[3]، والتّنكير في الجملة للتَّعظيم والتَّفخيم.

سِرُّ التَّقييد بشِبْه الجملة والإضافة في ﴿بِوَالِدَتِي﴾:

الدّلالة على أنَّ عيسى عليه السلام لا والدَ له

دلَّ التَّقييد بشبه الجملة: ﴿بِوَالِدَتِي﴾ على بيان مَحَلِّ البِرِّ، وهو والدة عيسى عليه السلام، فتأكَّد بهذا أنَّه لا والدَ له؛ لأنَّه لو كان له والد لأوصاه الله تعالى ببِرِّه كما أوصاه ببِرِّ والدته، وهذا القيدُ في نور الإضافة وخصوص مادّة المضاف إشارةٌ إلى براءة أُمِّه، كما أنَّه كالتَّصريح في أنَّ عيسى عليه السلام لا والد له، والإضافة في ﴿بِوَالِدَتِي﴾ لتأكيد نِسْبته إليها نَصًّا، وهذا ردٌّ آخر على مَن زعموا أنَّه إله، أو أنَّه ابن الله، ويُستنبط مِن كلام عيسى عليه السّابق الذي أُنْطِق به: أنَّ الأمر بالصّلاة والزَّكاة وبِرّ الوالدَين كان في كُلِّ الشَّرائع السّابقة، وأنَّه بَقيَ ولم يُنْسَخْ.

دلالة العطف:

المقصود مِن عَطْف جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ هذه الجملة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 532، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 229، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 492، والطّريفيّ، التّفسير والبيان لأحكام القرآن: 2/ 841.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 177، والعُكْبري، التِّبْيان في إعراب القرآن: 2/ 873.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 95، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 177، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 90.

على ما قَبْلها تقريرُ مضمونِ ما قبلَها وتأكيدُه؛ لذا فالمعنى: وجعلني اللّهُ بارًّا متواضعًا، خاضعًا لأُمّي، ولم يجعلني قاسيًا عاتيًا مُتَكَبِّرًا مُضَيِّعًا لحَقِّ والدتي، التّي تأكَّد حقُّها لقيامها مَقامَ الوالدَينِ، إلّا أنَّه عَبَّر عن هذا المعنى بما يستلزمه، وهو نَفْي كونه جَبّارًا شَقيًّا في عِلْم اللّه تعالى؛ لكون الكِناية أَبْلَغ مِنَ التَّصريح[1].

التَّعبير عنِ المعنى بما يستلزمُه أَبْلغُ مِنَ التَّصريح به

الغرض مِن تنكير المفعول الثّاني ﴿جَبَّارًا﴾:

الجَبّارُ: المُتَكَبِّرُ المُتَسَلِّط الظّالم، غَليظُ القلب في معاملة النّاسِ، المُسْتَعْلي عليهم، والغرض مِن تنكير المفعول الثّاني: ﴿جَبَّارًا﴾ التَّقبيحُ والتَّشْويه، فما أَبْعَدَ المُتَّصِفَ بهذا الوصف عن حُبِّ النّاس! وما أَشَدّ تربُّصَهم لهلاكه وزواله! "وقد كان مِن نعمة اللّه تعالى التي أنعم اللّه تعالى على عيسى عليه السلام أنّه لم يجعله جبّارا، وقد وُصِفَ الجبّار بأنَّه شقيٌّ مطرودٌ مِن رحمة اللّه، وقد كُتِبَت عليه الشّقوةُ في الدُّنيا والآخِرة، أمّا في الدّنيا فهو أنه مُبْغَضٌ إلى النّاس، يتمَنَّون به النّازلات، ويتحيَّنون له الفرصَ ليُردوه، وهو يتوجَّسُ بنفسه مِنَ النّاس ومِمَّن يُحيطون به، فهو في شقاء دائم؛ لنفرة النّاس منه، فلا سعادةَ في نَفْسِه وإنْ حَسِبَه النّاسُ سعيدًا، فهو شَقيٌّ"[2].

الجَبّارُ شَقيٌّ مطرود مِن رحمة الله

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 546.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4635.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»